محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الخامسة: التربية والتعليم في العهد العثماني الجزء الثاني

لقد اشترك الجزائريون في صنع الثقافة العربية الإسلامية، غير أننا لا نملك تاريخا لثقافتنا، لأن الثقافة هي جوهر الوجود وهي التي نستمد منها وجودنا وذاتنا وحقيقتنا، إن العهد العثماني في جميع مصادره لا يزال غير مدروس فلم يؤلف علماء الجزائر أثناءه تأليفا يغطي جوانبه ويدرس ظواهره ويسجل أحداثه.[i]

كما أن علماء الجزائر في العهد الفرنسي لم يلتفوا لدراسة العهد العثماني، غير أن ما كتب بأقلام جزائرية تأثر بالثقافة الفرنسية وهم يحملون شعار يرمي العثمانيين بالوحشية الثقافية والاستبداد السياسي والشره الاقتصادي.[ii]

ونشير إلى أن الفرنسيين أهملوا كل ما يتعلق بالثقافة والفنون والعلوم في دراساتهم، واقتصروا على دراسة المعاهدات الدولية والوثائق الإدارية بحجة أنها ضاعت من أرشيفات العهد العثماني، في الحروب، لكن الذي حملوه إلى بلادهم أعظم.

وتحتل مدينة جيجل مكانة خاصة في تاريخ الجزائر الحديث، لأنها كانت الباب والمفتاح لقيام الدولة الجزائرية الحديثة[iii]، ولا يمكن لهذه الأهمية والمكانة الخاصة لمدينة جيجل أن تتضح دون العودة إلى الوراء، قبل دخول العثمانيين كان المغرب العربي تحت نفوذ ثلاث دول رئيسية:

المرينيين بالمغرب والحفصيين بتونس والزيانيين بالجزائر، غير أنّه من التسامح أن نعتبر هذا التقسيم بشكله المعروف حاليا، لأن قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة والكثير من المناطق الشرقية من الجزائر كانت تحت حكم الحفصيين، وكذلك الحال بالنسبة لبعض المناطق الغربية التي كانت تتبع المرينيين بالمغرب، كما أنه كانت بعض القبائل تتبدل ولاءاتها تارة وتقف على الحياد تارة أخرى.

إذ كانت تعيش بلاد المغرب العربي حالة صراع سياسي بينها والأمر من هذا كله أن بعض العائلات الحاكمة عاشت صراعا حول الحكم والملك.[iv] وقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية عاقبة وخيمة على الحياة الثقافية، فهاجر بعض العلماء إلى المشرق والمغرب وربط آخرون مصيرهم ببعض الأمراء، بينما انزوى بعضهم مفضلا حياة الزهد والتصوف والهروب من ملذات الدنيا.

ووسط هذه الصورة المضطربة للحياة السياسية كانت هناك بعض المدن تزهو وتشع مدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع عقليا وروحيا، كتلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة، ففي كل مدينة اشتهرت عائلات بالعلم والتدريس والتأليف والتصوف.[v]

1. المساجد:

تعتبر المساجد من أهم المؤسسات الدينية، وتتمحور وظيفتها في آداء الصلوات وتحفيظ القرآن وتعليم الفروض المختلفة، ويذكر محمد ابن عبد الكريم الفكون أن المساجد:"قد كانت مرتعا لحلقات الدروس اليومية، ومحطاً لفنون العلم، التي كانت تدرس لذلك العهد، لا سيما في القرى والمدن، حيث لا زوايا تقوم بدورها في بث ما أمكنها من العلوم."[vi]

وتقسم المساجد في العهد العثماني من حيث تأسيسها إلى مساجد أسسها الخلفاء والأمراء والولاة، وهو جزء من عملهم الوظيفي اتجاه المسلمين، إما للشهرة أو لكسب عطف الرعية، ومساجد أسسها الأثرياء لكسب الشهرة أو التقرب لله، أو التقرب للعامة من الناس. ومساجد أسستها فئات دينية أو مؤسسات خيرية وهي معظم مساجد الجزائر. إذ يمكن أن نلاحظ أنه والى يومنا هذا مازالت المساجد في الجزائر تعتمد على تبرعات المحسنين في بنائها ومهمة الدولة هي التسيير فقط.

ولما كان المسجد والمدرسة متلازمين في العهد العثماني، والتعليم قضية أهلية مرتبطة بالسكان، غير أن مجهودات العثمانيين تميزت بإسهامهم في تشجيع بناء المدارس، وتكريم العلماء وتقريبهم منهم، حيث انشأ صالح باي قسنطينة مدرسة الكتانية، وألحق بالجامع الأخضر مدرسة، وأمر محمد الكبير بتوسيع رقعة التعليم بوهران ومنح جوائز للبعض من أهل الفكر.[vii]

وكان تشجيع العثمانيين للتعليم برصد الأوقاف والاحباس[viii] التي تتخذ طابعا دينيا لمساعدة الطلبة والغرباء وصيانة المساجد وإرضاء علماء الدين، وتسديد تكاليف تسيير المؤسسات الدينية.

2. المدارس القرآنية:

لقد تأسست هذه المدارس في العهد العثماني، وبلغت شهرتها آفاقا بعيدة، وكان شائعا أن تؤسس بجوار المساجد وذلك لارتباط العلم بالدين، وإذا ابتعدت عن المسجد يبنى بداخلها مصلى، وتتنوع معارفها وعلومها من العلوم الدينية التي تقوم على تحفيظ القرآن وتفسيره، وشرح الحديث والفقه، والتوحيد والمنطق. إضافة إلى علوم اللغة والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء.

لقد ساهمت المدارس بشكل فعّال في الجانب العلمي وتكوين القضاة والموظفين، ويكون التدريس فيها بعد موافقة الداي واقتراح مسئول الأوقاف، ويجمع المدرس بين وظائف عدة كالتدريس والإفتاء والقضاء.

ومثلت مرحلة التعليم فيها الدمج بين الثانوي والتعليم العالي، ويقوم فيها التعليم على الحفظ واستظهار المتون نظما ونثرا، وكان المدرسون يدربون تلاميذهم على مناقشة المسائل وإثراء أفكارهم، ومن ثم جاء الاهتمام في تلك الفترة بالتخصص في كتابة التراجم والسير لشخصيات دينية وتاريخية.

وقد قسّم العلماء الدراسة إلى فصلين فصل الشتاء وفصل الربيع، ويرجع ذلك إمّا لقلة المدارس أو لقلة الأوقاف عليها، وبذلك ارتبطت علاقة

المدرس أو المؤدب بطلبته كعلاقة الأب بأبنائه، وهو شديد الحرص على مستقبلهم متفرغ لهم، يقول **ايميل كومب** في وصف حالة التعليم في الجزائر نهاية القرن 18 :"كان التعليم العالي في أرض الجزائر يشتمل جمهورا غفيرا من الناس المتعطشين للعلم والمعرفة، يجلسون حول شيوخ علماء لا يتلقون عنهم علوم الشريعة وقوانينها فحسب، بل يتلقون أيضا علوم الرياضيات والآداب، فكانت نتيجة انتصار أسلحتنا أن تفرق الشيوخ واضمحل التعليم العالي."[ix]

3. الزوايا والطرق الصوفية:

نشأت الزوايا في المشرق العربي وكان يقصد بها المسجد الصغير وذلك للتميز بينها وبين المسجد، ولكن في المغرب العربي ظهرت في القرن 13 وحلت محل الرباطات[x].

ويشير أبو القاسم سعد الله أن بناء الزاوية يختلف عن بناء المسجد، فالزاوية غالبا ما تجمع بين هندسة المسجد والمنزل، وهي في الجملة قصيرة الأسوار منخفضة القباب قليلة النوافذ، وإذا كان لها مسجد فهو في الغالب من دون مئذنة، فالزاوية من الناحية الهندسية ليست جميلة، شكلها يوحي بالتقشف والعزلة.[xi]

وتعرفها ايفون توران:" أنها مدفن عائلة مرابطين، أي عائلة تمتلك الأصالة الدينية الوراثية، ويأتي إليها الناس لأداء الصلاة، ثم من أجل

العلاج والتعلم، وتحظى تعليماتها بثقة كبيرة خصوصا وأنها تقوم على أسس خرافية وغير عقلانية."[xii]

ومن أهم مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الزوايا والقباب والأضرحة والطرق الصوفية والأماكن المخصصة للزيارات في كامل أرجاء الوطن سواء في المدن أو الأرياف، وقد كانت كل مدينة محروسة بولي صالح يحمل لها البركة ويحميها ويمنع عنها الاعتداءات والمشاكل التي تواجهها.

رابعا.سياسة التعليم في العهد العثماني:

لقد عرفنا أن الدولة العثمانية لم يكن لها دخل في شؤون التعليم لا من حيث الإشراف ولا التمويل ولا من حيث الأهداف والغايات ورسم سياساته، فلم يكن هناك وزير للتعليم ولا مدير ولا وكيل، أو نحو ذاك من الوظائف الرسمية.

لقد كانت هموم الدولة وقتئذ منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال، ولم تكن هذه الأموال وغيرها تستعمل في نشر التعليم وترقيته، وتنمية الثقافة وتنشيطها، أو تطوير المجتمع اقتصاديا، أو إلى تربية الشعب سياسيا، وإذا فعلت شيئا من ذلك فعن طريق الدين.[xiii]

ولو جاز لنا الاستثناء في العهد العثماني لوجدنا بعض الإسهامات لمحمد الكبير وصالح باي، من خلال تشجيعهما للعلماء وبناء المساجد والزوايا، لكن هذه المحاولات فردية ولا تقوم على خطة مدروسة ولا تخرج عن تبعية التعليم للدين، وهو تلبية الشعور الديني لا الشعور العلمي لديهما، كما تهدف لكسب رضا الناس والشهرة والمدح والثناء.

فالتعليم كان ينبع من حاجة المجتمع الجزائري لتربية أبناءه، لذلك اعتمد على جهود الأفراد والعائلات والمؤسسات الخيرية، ويدخل في هذا العموم رجال الدولة كأفراد يسهرون على تعليم أطفالهم، إما امتثالا لحث الدين على التعليم، وإما لأن الأطفال في سن معينة لا يحتاجهم أهلهم في العمل، وإما لان التعليم والقضاء والإفتاء وما إليها من مهن كانت وراثية في الأسر.[xiv] أو لأن بعض المهن تحتاج لنوع من التعليم كالتجارة التي تقتضي معرفة الحساب.

كما ينطلق التعليم من تقاليد الجزائريين الراسخة والتي تعود إلى عصر من الحضارة وازدهار للعلوم والفنون أيام الدويلات الإسلامية التي ظهرت بها، وأنتجت من العلماء والمؤلفات الكثير، فهي تقاليد تحترم الإنسان المتعلم وتعز وتجل العلماء، وتقدس العلم وتحث عليه وتوفر له أسباب النجاح والظروف اللائقة به.

ويمكن أن نقر مع أبو القاسم سعد الله أن مسألة الاهتمام بالتعليم من قبل العثمانيين كانت غائبة كون اغلب العثمانيين خاصة جنود الانكشارية

وبعض رجال الدولة كانوا عزابا وفي جملتهم من دون أطفال، فلم يتحمسوا لقضية التعليم، كما أن اغلبهم حديثي العهد بالإسلام، ناهيك عن سوء الأوضاع السياسية والمواجهات العسكرية ضد المسيحيين الاسبان.

ومهما ذكرنا من إهمال العثمانيين للتعليم وسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية، إلا أن الأسر الجزائرية لم تفرط في التعليم وتحملت أعباءه، فرغم الفقر كانوا حريصين على تعليم وتحفيظ أبنائهم للقرآن، الذي كان أساس التعليم والدين.

وإذا ما نظرنا إلى آراء بعض الرحالة المسلمين والكتاب الأوروبيين، فان أحوال التعليم كانت سيئة وغير سارة، فرغم الإهمال كان العثمانيون يستولون على الأموال التي يقدمها أهل الخير للمؤسسات التعليمية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر شكا ابوراس من سوء أحوال التعليم وأهله في العهد العثماني، رغم أنه كان يعيش في عصر الباي محمد الكبير بوهران قائلا:"في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده، وسدَت مصادره وموارده، وخلت دياره ومراسمه وعفت أطلاله ومعالمه."[xv]

ولكن هذه الصورة تتغير عندما نتأمل حال التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني لدى الجزائريين أنفسهم، ذلك أن كثيرا من المصادر تتحدث عن استعداد الشعب للتعلم وحبه للعلم واحترامه للمعلم. وتشهد كتابات **فانتور ديباردي** وتقارير الفرنسيين أنفسهم غداة الاحتلال الفرنسي للجزائر،

والتي تشهد على أن أعداد المتعلمين في الجزائر يفوق أعداد المتعلمين في فرنسا.

ولم تكن مهنة التعليم من المهن المرغوب فيها أو المربحة فقد كانت مهنة تجلب لصاحبها الفقر، رغب ما تجلبه من عطف الناس وتضامنهم والاحترام للمؤدب، لكن إذا ما تعلق الأمر بالتعليم العالي والثانوي فيختلف الأمر، فقد كان المعلم من المحظوظين، ولكي يصل إلى هذا المنصب فعليه أن يصارع خصومه من أهل مهنته، ومن أهم العقبات هي رضا الباشا أو الباي، فالمؤدب كانت شروط تأهيله بسيطة أما المعلم والمدرس فكانت كثيرة.

فالمعلم في الثانوي هو موظف لدى الدولة يعينه الباشا في المدن، أما في الأرياف فكان رجال التصوف والمرابطين يتنافسون على جلب طلبة العلم لزواياهم، لنشر أفكارهم وجلب الأموال والصدقات.

إذن فقضية انتشار التعليم بشكل واسع بين الناس في جزائر العهد العثماني، إنما يقصد بها التعليم الابتدائي، أو الحد الأدنى من التعليم. فلقد كان الدين الدافع الأول في التعليم، فيستزيدون علما استكمالا لدينهم وفهما لمبادئه، ولعله من سيئات العهد العثماني هو أن المتعلم لا يجد ما يعمل بعد تخرجه.

خلاصة:

هي صفحة أخرى تطوى من صفحات المجتمع الجزائري، عرف فيها أمجاد وبطولات، وتسيّد البحر المتوسط بفضل أسطول حمل قادته راية الإسلام، وان كان وضع المجتمع الجزائري مأساويا في بعض فتراته كونه عانى من نظام البايلك الذي نخره الفساد الإداري والرشوة وعدم الاستقرار السياسي، وسوء الأوضاع الاقتصادية، وسيادة الجهل والأمية، وانتشار التصوف الذي التصقت به البدع والخرافات والسحر والشعوذة والدجل.

فروح التخلف كانت تميز حركة الثقافة والعلوم مع ركود في الوعي التربوي، الامر الذي شجع على هجرة العلماء وانتقادهم للوضع القائم.

نقول هذا الكلام لان المجتمع الجزائر مقبل على فترة تاريخية ابشع، وحاول من خلالها الاستعمار الفرنسي ان يصور هذه الفترة بفترة الجهل والامية، لكنها مهما بلغت لن تصل الى محاولات الطمس الثقافي عن طريق سياسات الاستعمار الفرنسي.